المحاضرة الثامنة : التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية

مقدمة :

ما ان تمكن الاحتلال الفرنسي من بسط نفوذه في المناطق الشمالية رغم المقاومة العنيفة التي أبادها المقاومين شرع في التفكير لاحتلال الصحراء والتي ظلت طيلة العهود الأولى من القرن التاسع عشر صعبة المنال بالنسبة له ، مع ذلك قام باللجوء للعديد من الطرق والمشاريع لتحقيق رغبته لضمها إلى سلطانه.

جذور الاهتمام الفرنسي بشأن الصحراء :

بعد اكتشاف الانجليز والألمان للصحراء ، دخل الفرنسيون مجال المنافسة في الاستكشاف ولم يكن تفكير فرنسا في توسعها العسكري نحو الجنوب وليد تاريخ الاحتلال أو القضاء على المقاومة الشعبية في المناطق الشمالية وانما يعود الى سنة 1824 عندما بدأ روني كابي في رحلته لاكتشاف أغوار الصحراء أعوام 1824 1828 وزاد حماسهم بعد احتلالهم لمدينة الجزائر عام 1830

3/البعثات الفرنسية الاستكشافية :

<u>بعثة روني كابي</u> : هو من أول المغامرين الفرنسيين الذين توغلوا في عمق الصحراء الجزائرية ، أين انطلق عبرها من السنيغال حتى مدينة تومبكتو ثم عاد عبر طريق تافيلالت إلى فاس والرباط وطنجة بين عامين1842-1828، وهذه المعلومات ساعدت فرنسا في التوسع نحو الجنوب الغربي .

<u>بعثة جيرهارد رولفس</u> : قام هذا الأخير برحلات عديدة لاكتشاف الصحراء منضوي تحت فرقة اللفيف الأجنبي الفرنسي التي كانت تعمل في الجزائر فبداية توجه نحو المغرب الأقصى فالجزء الجنوبي منه متجها نحو السوس ثم الواد ثم إلى تافيلالت متجها نحو وهران وفي الرحلة الثانية انطلق من طنجة إلى واد زير وبني عباس ثم واحات توات وتديكيلت وعين صالح ثم غدامس ومنها إلى طرابلس وبهذا تمكن رولفس من اختراق الصحراء من المغرب الأقصى إلى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية ، أما رحلته الثانية فقد انطلق من طرابلس عبر عرق مرزق متجها إلى التشاد ثم إلى

بورنيو ومنها إلى لاغوس وبذلك يكون روفلس أول رحالة أوربي **يعبر إفريقيا الغربية من ساحل الأبيض المتوسط شمالا إلى ساحل غانا جنوبا .**

يعثة فلاترز :قام الكولونيل فلاترز برحلتين الأول بتاريخ 21 ماي 1880 من ورقلة إلى الأغوط واسندت له مهمة القيام بعملية استكشاف لمد طريق صحراوي من الجزائر إلى النيجر ، وبعد انتهائه من رحلته الأول ، نظم رحلة ثانية بتاريخ 04 ديسمبر 1880 من ورقلة إلى الجنوب الجزائري بهدف اكتشلف بلاد الطوارق ودراسة مشروع الخط الحديدي عبر الصحراء وظهرت الرحلة بمظهر الاكتشافات العلمية لكن في الحقيقة هو تمهيد لاحتلال المنطقة ونهب خيراتها، وبوصول فلاترز إلى بيئر غرمة يوم 16 فيفري 1881 هناك قام التوارق بقتل فلاترز ورفاقه ، وهي الحادثة أثرت كثيرا على العمليات الاستكشافية للصحراء أي توقفت بعض الشيء لأن الصحراء لا تخلوا من المقاومين والثوار من أمثال بومرزاق وسي موسى بوحمار الدرقاوي وغيرهم من المقاومين الذين لاقوا النصرة والتأييد من سكان الجنوب ، إضافة إلى ثورة أولاد سيدي الشيخ التي أخرت البعثات الاستكشافية لمدة عشرة سنوات وكذلك ثورة بوعمامة .

4/المشاريع الفرنسية لاحتلال الجنوب الجزائري :

للتمهيد لعملية الاحتلال شرع الاحتلال بتمهيد المنطقة واستمالة سكانها بدعوى انتشالهم من التخلف والبداوة والسير بهم في ركب الحضارة ، وكلها دعوات باطلة وإنما كانت أهدافهم ترتكز في تسخير خيرات المنطقة لصالحها والاستفادة منها أقصى استفادة وعليه لجأ لإنشاء مشاريع للسيطرة على مقدرات وخيرات الصحراء وذلك لما تزخر به من خيرات وبترول ومعادن ثمينة هذا من جهة ومن جهة أخرى لتمكين السيطرة على جنوب الصحراء .

- مشروع السكة الحديدية :

كانت فرنسا تنظر للصحراء نظرة **مخزون اقتصادي وأمني واستراتيجي** من شأنه أن يؤمن لها مستقبلها في القارة الإفريقية ، حيث أرادت أن تربط الجزائر عبر الصحراء بمستعمراتها في إفريقيا الغربية وجاء اهتمام فرنسا بمشروع المواصلات لأهداف هي :

- تسهيل عملية تنقل القوافل العسكرية للتمكن من القضاء على بؤر التوتر للمقاومة الجزائرية

- ربط المراكز الاستعمارية ببعضها البعض على مستوى محلي ودولي ومستعمراتها الإفريقية على مستوى قاري.
- خدمة التجارة الفرنسية والعمل على ازدهارها وخاصة قطاع الخدمات وذلك من خلال استغلال الثروات الطبيعية الظاهرية والباطنية فاقليم قورارة وتوات غني بالمعادن كالفحم الحجري حسب الدراسة التي قدمها دافلامون وهضبة تادميت الغنية بمركبا الكبريت حسب ما ذهب إليه رولان بالاضافة للعديد من المعادن
- الحد من تجارة القوافل الغربية والطرابلسية والمالية العابرة للصحراء الإفريقية المحملة بالسلع والمعادن الثمينة.

غير أن المشاريع المخصصة لهذا الأمر باءت جميعها بالفشل للاعتبارات التالية :

- التكلفة الباهظة لهذه المشاريع ودخول فرنسا في عجز مادي كبير وكذا المدة الزمنية الطويلة التي يتطلبها انجاز هذه المشاريع
- التصدي الكبير لهذه المشاريع من طرف القبائل الصحراوية وسكان الطوارق الذين قتلوا الكولونيل فلاترز
- عدم الاستقرار السياسي نتيجة معارضة أغلبية البرلمان الفرنسي لهذه المشاريع ودخول في الحربين العالميتين
- وعورة المناطق الصحراوية والتضاريس والبيئة القاسية التي تمتاز بها الصحراء

ومع ذلك كله ففرنسا قامت بتعبيد الطرق الرابطة بين الشمال والجنوب في مكان السكك الحديدية لتسهيل التنقل في ذلك

المشروع البحر الداخلي الصحراوي:

لقد واجه الفرنسيون صعوبات كثيرة في غزو جنوب الصحراء بسبب صلابة مقاومة سكان المنطقة من جهة وقساوة الطبيعة من حيث الجفاف وارتفاع درجات الحرارة من جهة أخرى ، فكان لابد على المستعمر إيجاد حيلة لاحتلال الصحراء فاهتدوا الى مشروع إنشاء بحر داخلي مقتدين بنجاح فيرديناند دوليبس في حفر قناة السويس لعلها بذلك تتمكن لها إحداث تغيير في الظروف الطبيعية القاسية ويسهل عليها عملية التوسع في الصحراء الجزائرية ، غير أن هذا

المشروع لم يلق استحسانا من طرف البرلمان الفرنسي نظرا لتكاليفه الباهظة وطول مدة انجازه يضاف إليها دخول فرنسا في صراعات سياسية أدت إلى تجميد المشروع .

ولكن نظرا للتطور العلمي وظهور الطيران والطائرات الحربية الذي أصبح بديلا والتي ستسهل من عملية تنقل الجنود إلى جنوب الصحراء الغيت تماما فكرة مشروع البحر الداخلي.

5/ المبشرون ودورهم في التوسع في الجنوب :

في الوقت الذي كان الاحتلال العسكري يكتسح المدن الشمالية والقرى كان العمل التبشيري قائم على قدم وساق في مناطق الجنوب وعمق الصحراء تمهيدا للاحتلال العسكري متخذين طرق عديدة كالرحلات الاستكشافية

هذه الحملات التي كانت في ظاهرها خدمة سكان الجنوب وفي باطنها مسعى تنصير السكان وتقديم الصورة الحسنة للمستعمر الفرنسي ومن ضمن هذه الحملات:

<u>حملة الكردينال لافيجري :</u>

كثفت فرنسا من البعثات التبشرية إلى الصحراء لتحقيق اتصالات بين فرنسا والتوارق والتي كانت تظهر بمظهر البعثات العلمية ولكنها في واقع الأمر كانت ذات صبغة استعمارية تجسسية تهدف للتعرف على مقدرات المنطقة البشرية والعسكرية

وبعد توطيد نشاطه التبشيري في الشمال قرر التوسع نحو الجنوب فكان بداياته بإرسال ثلاث أخوات بيض إلى الأغواط لكنهن اعتذرن عن المهمة لعدم مقدرتهن على التأقلم ، بعدها أرسل اثنان من القساوسة المسحيين هما "روشي " و"أوليف " وحددت أهداف هذه المهمة في :

- ضمان الممارسة الدينية المسيحية لدى المستوطنين بالمنطقة
- القيام بدوريات للإرشاد الديني في أواسط فيالق الجيش الفرنسي
- التحضير لإنشاء مراكز تبشيرية في الواحات والصحراء الكبرى

وفي 1872 توجه الأسقف شار موتان من مدينة الأغواط بطلب من الكردينال لافيجري نحو وادي ميزاب لأداء مهمته التبشيرية التي استغرقت شهرا كاملا دون خلالها ملاحظاته حول سكان المنطقة.

هذه الملاحظات رفعت بدورها إلى السلطات الفرنسية بسرية تامة لتكون على اطلاع عن كثب بمجريات الأحداث التي يصعب عليها ملاحظتها أثناء دخولها في منطقة وادي ميزاب

وفي 31 ديسمبر 1875 بعث لافيجري ثلاث مبشرين هم الفرد بولي وفيليب ميموري وبيار بوشان غير ان التوارق تعرضوا لهم فأردوهم قتلى ، وهذا المصاب احدث ضجة لدى الرأي العام الفرنسي في مدينة الجزائر وأعلنت حالة طوارئ وحذرت السلطات المبشرين من التوغل في الصحراء بمفردهم دون حماية

بعدها أضحت الحملة التبشيرية تزاول نشاطها تحت الحماية العسكرية وارتكز عملهم في الجنوب دون التوغل في أعماق الصحراء. حيث أسسوا مدرسة للطرز في مدينة غرداية التي يشرف عليها الأباء البيض ومدرسة النسيج التي تشرف عليها الأخوات البيض

كما انشئت الاخوات في ورقلة مشاريع لجلب النساء والتغلغل داخلهن لجمع أكبر قدر من المعلومات التي هن مطالبات بتقديمها إلى السلطات الفرنسية فانشأن ورشات لنسيج الزرابي وغزل الصوف والوبر ومساعدة النساء بالمال والتفرب إليهن ما استطاعوا في ذلك سبيلا أما الآباء فعملوا على فتح ورشة لصناعة الاسمن والخزف مستميلين بذلك الرجال وكسب ثقتهم .

6/سياسة التوسع في المنطقة :

القوافل التجارية وإنشاء المراكز التجارية : ان اهتمام السلطات للمنطقة دفعها إلى السماح لقافلتين تجاريتين فرنسيتين بالانطلاق من بسكرة إلى جنوبها يوم 13 جويلية 1844بعد احتلال بسكرة في مارس 1844 ومن اجل التعرف على أسواق المدن الداخلية حيث اتجهت واحدة إلى تقرت والثانية إى عين صالح وصولا إلى تمبكتو هذا ما فتح الباب لقوافل أخرى لتنظم إليها نذكر منها قافلة التاجر ديشفري وماريو غارسين الذي زار بسكرة وتوقرت 1848لأهداف تجارية ، وقامت فرنسا بابرام عدة صفاقات ومعاهدات تجارية مع توقرت ووادي ميزاب .

هذا وأنشأت فرنسا عدة مراكز تجارية على غرار الانجليز من أجل التبادل التجاري وتعين قناصله من أجل الحصول على اتفاقيات مربحة مع زعماء وشيوخ القبائل

وبداية من ستينيات القرن التاسع عشر حددت فرنسا كل من أبيض سيدي الشيخ والأغواط وبسكرة كمراكز انطلاقا واستقبال للقوافل ومن أهم المراكز التي أقامتها مركز عين الصفراء

الذي انشأته فرنسا ولاق اقبالا كبيرا لأهميته التجارية ، مركزي بني ونيف وبشار والذي تقدمت فيه التجارة بفعل ايصال المنطقة بخط السكة الحديدية ومن ثم تحولت بشار إلى سوق هام يعج بالتجار والسلع من جميع الأنواع ، ثم إن احتلال فرنسا لعين صالح جعلها تتحكم في السوق نظرا لموقعه الاستراتيجي اذ يبتعد بنفس المسافة عن شمال الجزائر وتمبكتو جنوبا وموغادور جنوبا وطرابلس شرقا وبالتالي فهي ملتقى الطرق الصحراوية التي تربط القارة ببلاد السودان فضلا على أنها مركز ممتاز لتمويل الطوارق.

استمالة أعيان المنطقة :

سعت فرنسا لاستمالتهم من أجل التعرف على البنية الاجتماعية والدينية ومدى قابلية السكان للمقاومة ومن هم في صفهم ومن هم عدوهم ، لذا ارسل الجنرال راندون سنة 1855 دعوة لأحد الأعيان وهو الشيخ عثمان الذي كان له صلة بالعديد من قبائل الشعانبة والطوارق.

هذا وانتهجت أسلوب يجب معرفة الناس للسيطرة عنهم وسياسة فرق تسد من خلال زرع الشقاق بين أعيان البلاد وسكانهم ومن لهم روح الوطنية وبث بذور الحقد بينهم ليسهل لها السيطرة عليهم وإحياء العرقية والطائفية بمثل ما فعلته مع عائلة بوعكاز وبن قانة من خلال تشجيعهم لفرحات بن سعيد للتمرد والخروج على شيخ العرب بن قانة وو سعت الخلاف بين سلاطين توقرت من أجل الوصول للحكم ، كما استمالت الطريقة التجانية بتماسين لما لها من تأثير على مريديها وعلى سكان الجنوب الشرقي بالأخص.

خاتمة :

لم يدخر الاستعمار الفرنسي أي جهد وقوة وحيل ومكر ودهاء للوصول إلى مبتغاه فب احتلال الصحراء الذي اعتقد أن عملية التوسع فيها ستكون بسيطة يسيرة ، لكن حدث العكس تماما فلاقى مقاومة شرسة من سكانها الذين الحقوا اضرارا بالاحتلال وأبطؤ من عملية عملية توسعه في الصحراء.

- ✓ التركيز على الغزو والتوسع الاستعماري (الاستكشاف كما يسمونه هم) على امكانات الصحراء الاقتصادية والبشرية ومحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية والطبيعية ودراسة المجموعات السكانية .
- ✓ محاولة وضع شبكة من طرق المواصلات الحديدية والبرية وأسلاك الهاتف لتسهيل عملية التنقل للقوات العسكرية والمغامرين ، ومنه شرع الفرنسيين في دراسة الظواهر الطبوغرافية والتضاريسية والمناخية لتحديد المناطق التي تصلح لمد خطوط السكة الحديدية.
- ✓ محاولة خلق بحر داخلي صحراوي من أجل إحداث تغيير جذري في الظروف الطبيعية والمناخية القاسية للصحراء .